سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

الكاتب، الناشط، المؤسسة

سهيل إدريس بين السياسة والصحافة والشأن العامّ

نبيل سليمان

في الكتابة الأدبية لسهيل إدريس (الرواية والقصة والمسرحية والمذكّرات) ما فيها من السياسة والشأن العامّ. وله الكثيرُ من ذلك في غير كتابته الأدبية أيضًا، وبخاصة افتتاحيات مجلة الآداب وما ضمّ كتاباه: **مواقف وقضايا أدبية**، و**في معترك القومية والحرية**. وقبل ذلك وبعده، تؤشّر اشتغالاتُ سهيل إدريس غير الكتابية، وبقوة، إلى أهمية الشأن العامّ في حياة هذا المواطن. وحسبي أن أَذْكر من ذلك مساهمتَه في تأسيس اتّحاد الكتّاب اللبنانيين (مع أدونيس وقسطنطين زريق وآخرين)، ومساهمتَه في تأسيس مركز دراسات الوحدة العربية. كما كانت السياسة عنوانًا بارزًا في ما تولاّه من الترجمة والنشر، سواء في مجلة الآداب أو دار الآداب، ولاسيّما في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. ومن المهمّ أن يشار هنا إلى ظاهرة «المشاركة» التي طَبعتْ مشروعاتِ سهيل إدريس الثقافية العملية الكبرى، بخلافِ ما ساد ويسود من الفردية والأحادية في الاقتصاديات العربية: فمع بهيج عثمان ومنير بعلبكي أسّس مجلةَ الآداب، ثم انفرد بها عام ١٩٥٦؛ ومع نزار قباني أسّس دارَ الآداب عام ١٩٥٦، ثم انفرد بها عام ١٩٦٢. وقد يكون في النهاية السريعة لهذه المشاركة ما يعزّز التقليديَّ الاقتصاديَّ السائد، غير أنّ تنحّيَه عن المؤسّستيْن جاء بخلافِ ما هو سائدٌ من التوريث أو الانقلاب الأُسري. بل إنّ الأمر ربما كان تعبيرًا ساطعًا وحاسمًا عن التاريخي والموضوعي والغَيْري والتجديدي في تكوين المثقف، وفي تصريفه لشأنه الشخصي وللشأن العامّ معًا.

❖ ❖ ❖

ابتدأ المشوارُ الأدبي والسياسي لسهيل إدريس في الصحافة. فقصّتُه الأولى «تذكار ثورة،» التي نُشرتْ في مجلة **الصيّاد** (١٩٤٥/١١/٢٢، بيروت)، ثم ضمّنها مجموعتَه القصصية الأولى، **أشواق** (١٩٤٨)، تروي قصةَ الفتى هاني غندور الذي أصيب برصاصة في مظاهرةٍ قَمَعَها المستعمِرُ الفرنسي، فأورثتْه عَرجًا. وقد ذكر الكاتبُ ذلك في **ذكريات الأدب والحبّ** (الجزء الأول).

تذهب الإشارةُ هنا إلى الوصال الحميم بين الكاتب والحياة العامة؛ ولعلّ ذلك هو ما يفسِّر ابتداءه بالصحافة: فقد عمل سهيل إدريس مراسلاً لجريدة **بيروت** في المجلس النيابي. وسَجّل في **ذكريات الأدب والحبّ** اعترافَه بأنّ عمله لسنواتٍ في **الصيّاد** و**بيروت** قد زجّه في صميم الحياة السياسية اللبنانية، وجعله يعيش فترةً من التاريخ الوطني حافلةً بالأحداث، مضيفًا: «عُمِّق حسّي الوطني على صفحات هذه المجلة [**الصيّاد**] التي حَملتْ آنذاك رايةَ القومية العربية، كما أنّ جريدة **بيروت** التي كان شعارُها 'العروبة فوق الجميع' ركّزتْ توجّهي والتزامي القومي.» وبالعودة إلى قصته الأولى «تذكار ثورة،» نقرأ في **ذكريات الأدب** أيضًا: «وأَذْكر أنّني بدأتُ مبكّرًا في كتابة القصص المستوحاة من النضال العربي الذي سيظلّ محورَ اهتمامي على صعيد الإنتاج الأدبي.» ولعلّ من المهمّ أن يشار في هذا السياق إلى السخرية التي وَسَمتْ ذكرياته السياسية، كما في رطانة/فصاحة صبري حمادة الذي خَطَبَ قائلاً: «أيها النوّابون» (بدلاً من «أيها النوّاب»)، أو في ذكر سامي الصلح للرسول «محمد أفندي»!

أمام مثل هذا التراث غير الأدبي، بضخامته وتنوّعه وامتداده وثقله، لا بدّ لمثلي في هذا المقام من الاختيار. ولأنّ هزيمة حزيران ١٩٦٧ كانت مفْصلاً كبيرًا جدّاً في حياة سهيل إدريس وكتابته «غير الأدبية،» فسوف يتعلّق ما اخترتُه بهذا المفصل، على أن يبدأ ببعض الإشارات ممّا سبق الهزيمةَ. ولتكن البدايةُ بالموقف النقدي والحواري لصاحب الموقف القومي العربي من اليسار الشيوعي، وذلك على إيقاع الهزيمة الأولى للمشروع القومي العربي والمشروع الناصري كما جسّدها عامَ ١٩٦١ مآلُ الجمهورية العربية المتحدة. ففي أيلول عام ١٩٦٣ زار سهيل إدريس الاتحادَ السوفياتي بدعوةٍ من اتحاد الأدباء السوفييت، وكتب عن ذلك في الآداب تحت عنوان «أضواء على الأدب السوفياتي الحديث،» مبتدئًا بنقد الذات، معترفًا بافتقاد الموضوعية في الحديث عن الأدب السوفياتي «لأنّ مَصادرَنا غربية،» لافتًا إلى أنّ كلّ السلبيات تُعلّق على مشجب عبادة الفرد (ستالين). ونَقَلَ الكاتبُ

عن غوركي «أنّ الأدب هو أكثرُ الفنون إنسانيةً، وبوسعنا أن نقول عن الأدباء إنهم إنسانيون بالمهنة، منتِجو النزعة الإنسانية.» وإذا كان إدريس القومي يؤكّد في ذلك نزوعَه الإنساني، فقد نَقل أيضًا مقاطعَ طويلةً من خطاب خروتشيف عن افتوشنكو وموقفِه من الفن التجريبي، وكذلك عن مذكرات اهرنبورغ، معقّبًا بالقول: «إننا لا نَفهم أن تقوم سلطةُ الحزب الحاكم بفرض قيودٍ على الإنتاج، وتحريمِ خلقِ ألوانٍ جديدةٍ من الأدب والفنّ لا تتعارض قطّ مع أهداف الحزب وإنجازاته... إنّ انتقادنا الأشدّ ومأخذَنا الأعنف هو أن يتولّى رئيسُ الدولة توجيهَ الانتقادات القاسية والاتهامات العنيفة إلى الأدباء والفنّانين، فيلقي بذلك ظلَّ الدولة الكثيف فوق الآثار الأدبية.»

بمثل هذا الموقف النقدي الذي ينتصر لحرية التعبير جاءت مساهمةُ سهيل إدريس المبكّرة لتنقية السجال القومي ـ الشيوعي، وللتخفيف من استقطابيته، وإنْ كان ذلك لا يعني أنّ المعانقة السياسية للناصرية (وللمشروع القومي العربية بعامة) لم تَعْرف من إدريس درجةً ما من المحاباة والمالأة على حساب حرية التعبير. على أنّ العكس هو ما راح يتعزّز سنةً فسنة. ففي افتتاحية عدد أيلول عام ١٩٦٦ من الآداب تحت عنوان «احتجاج وتضامن،» يأسف إدريس لما يتوارد عن تعذيب المثقفين والسجناء في الجزائر، إثر صدور كتاب **معذّبو الحراش**، والصدى المدوّي لرسالة التضامن التي وقّعها كبارُ مثقفي العصر: سارتر وسيمون دو بوفوار وموریاك وبرتراند راسل وسواهم.

وقبيْل هزيمة حزيران ١٩٦٧، أصدرت الآداب عددًا ممتازًا حول «قضايا التحرر الوطني كما تنعكس في آداب آسيا وإفريقيا.» وفي الافتتاحيةُ المطوّلة ينافح إدريس بحرارة ضدّ الحملة الصحفية التي شنّها على المؤتمر الثالث للكتّاب الإفريقيين والآسيويين (بيروت بين ٢٥ و٣٠ آذار ١٩٦٧) رهطٌ من «الطفيليين الذين لا يمتّون إلى الأدب بصلة، أو من الرجعيين الذين يعيشون من هِبات بعض الحكّام الذين نُكبتْ بهم الأمةُ العربيةُ في هذا الجزء من العالم.» ويتحدّث عن الدوائر الاستعمارية والمخابرات الغربية التي لم تكن راضيةً عن عقد المؤتمر في العاصمة اللبنانية «التي أَثْبتتْ أنّ لبنان يستطيع بكلّ حرية أن يشارك في قضايا التحرر في العالم.» ثم يعرّي ادّعاءَ الحملة على المؤتمر بعزل الأدب عن السياسة، فيذكّر باهتمام راسل وسارتر بالقضايا السياسية، كما يذكّر بتأييد شتاينبك للحرب العدوانية الأميركية على ڤيتنام بينما لم يعترض على ذلك معترضو اليوم. ويمضي الكاتب من هذه الوقائع إلى علاقة الأدب بالسياسة فيقول:

«إنّ هؤلاء الذين يريدون أن يعزلوا الأدبَ عن السياسة بصورةٍ مبدئية إنما يشوّهون معنى الأدب تشويهًا كبيرًا، إذ يعتبرونه غايةً للمتعة لا غير، فيقلّصونه إلى دورٍ تافهٍ في حياة الشعوب والأمم، وهو لم يكن كذلك قطّ في تاريخ الحضارة البشرية. إنّ الأدب يتناول همومَ الإنسان برمّتها، وإذا كان همُّ شعب في فترة من تاريخ حياته أن يتحرّر من الاستعمار والاستغلال والإقطاع، فإنّ أدباء هذا الشعب يخونونه أو يخونون أنفسَهم إذا اعتقدوا أنه لا يعنيهم أن يدعموا شعبَهم ويؤيّدوه في نضاله من أجل التحرر... إنّ من أهداف الاستعمار الجديد اليوم أن يعمل على صرف الأدباء عن معاناة هموم الشعوب المستضعَفة المستغَلّة بأن يغريهم بالمساعدات والهبات والبعثات والزيارات حتى يكفّوا عن أن يكونوا قوةَ توعيةٍ وإيقاظٍ وتنبيهٍ للشعوب التي تَنْشد الحرية.»

وكان إدريس قد أعلن في المؤتمر الصحفي الذي عقده كمال جنبلاط آنئذٍ أنّ جميعَ أدباء العالم مدعوّون إلى حضور «المؤتمر العظيم.» كما أعلن أنّ لبنان هو «البلدُ المنفتحُ على القارتين الآسيوية والإفريقية انفتاحَه على القارتين الأوروبية والأميركية، المتفاعلُ مع ثقافة الشرق تفاعُلَه مع ثقافة الغرب، المشاركُ في تقرير المصير العربي مشاركةَ العرب في تقرير مصيره.»

قبيْل ذلك، وعلى أبواب هزيمة حزيران ١٩٦٧، افتتح سهيل إدريس عددَ شباط ١٩٦٧ من الآداب بفصل من رواية **زمن الهزيمة والنصر** [لم تُكملْ ـ الآداب]. ويَرسم الفصلُ عددًا من الفدائيين على أُهبة المعركة الحقيقية الأولى لاسترجاع أول قرية عربية في فلسطين تَسْقط في يد الأعداء. وعبر شخصيتَي الأستاذ حافظ والتاجر الصغير إبراهيم (وهما من دير ياسين) والصحفي قاسم وقائدهم، تُستعاد أجواءُ حرب ١٩٤٨، وتُجلجلُ الخطابيةُ الروائيةُ لتجعل من المعركة المرتقبة معركةً ضدّ الخيانة العربية التي نَسَجَها رجالُ اللجنة العسكرية في دمشق، ومعركةً أيضًا ضدّ الخوف من المستقبل. وتَنقل الروايةُ عن الباشا، رئيس اللجنة العسكرية، القولةَ الشهيرةَ: «ماكو مدافع.» كما تنقل ردَّ حافظ: «ماكو مدافع. أجل أكو خَوَنَة. أكو مجرمون. أكو متآمرون جبناء. سنعود إلى فلسطين.»

❖ ❖ ❖

أما المفارقة القاصمة فهي أنّ هزيمة حزيران ١٩٦٧ حلّتْ بعيْد هتفة حافظ هذه، وبعيْد هتاف إدريس نفسه في «المؤتمر العظيم.» ومع ذلك، وعلى الرغم من هولِ ما كان، فقد أسرعتْ كتابةُ سهيل إدريس السياسية إلى الردّ على الهزيمة. ولا زلتُ أذكر أنني في مطلع تشرين الأول ١٩٦٧ قصدتُ مدينةَ الرقّة لأعمل مدرِّسًا للغة العربية عقب تخرّجي من الجامعة. وكسواي، كانت الهزيمةُ قد زَعزعتْ أركاني أيّما زعزعة. ومن مكتبة «الخابور» الوحيدة في مدينة عبد السلام العجيلي، اشتريتُ عددَ الآداب لذلك الشهر. ولمّا قرأتُ افتتاحيتَها تحت عنوان «الواقعية» تنفّستُ الصُّعداء: فقد سخر سهيل إدريس من المعزوفة التي أسرعتْ بعد الهزيمة مردِّدةً: «لنكن واقعيين» و«لنقرَّ بالأمر الواقع»؛ وسخر من العازفين الذين لم يسبقْ أن شاركوا في أيّ ميدان من ميادين العمل العربي، «وهذا يعني أنهم لا يتحسّسون رسالةَ الإنسان العربي الجديدة، هذه الرسالة التي تقوم قبل كلّ شيء على إرادة

التغيير.» وإلى السخرية، أعلن إدريس رفضَ الإقرار بالواقع الذي «تمّ بالقوة والغدر،» ورفضَ الواقعيةَ التي تدعونا إليها «الفئةُ الانهزاميةُ» لأنّها «السياسةُ الاستعماريةُ المثلى التي يصبو أعداؤنا لحملنا على تبنّيها.»

يومئذٍ، في الثانية والعشرين من عمري، كنتُ، كغيري ممّن شلّعتهم الهزيمةُ، ألوبُ على ما يبلّ الريقَ. وكانت سخريةُ سهيل إدريس ورفضُه قطرةً من ذلك البلل. أما القطرةُ الكبرى فكانت الرسالة التي ستَذْكرها الآداب مرةً بعد مرة، فتجلو قليلاً من الضبابية المغوية التي كانت في «الرسالة الخالدة» الأرسوزية العفلقية البعثية وفي «الرسالة الناصرية» أيضًا. فالرسالة التي يدعو إليها إدريس تقوم على إرادة التغيير أولاً، وهي ماثلةٌ أيضًا «في ميدان الفكر والأدب» وذلك بـ «أن ننتجَ الأعمالَ الثوريةَ التي تَصلُح زادًا روحيّاً للمواطن العربي، تَشْحنه بالتصميم والإصرار، وتُعينه على تحقيق إمكانياته.» أما غواية رسالة الآداب لمن كان يحلم أن يصير كاتبًا، فقد كانت في قول سهيل إدريس: «وسيكون، أو سيظلّ، من رسالة الآداب أن تفسح صدرَها لمزيدٍ من الثورية والتمرّد في الأقلام الفتيّة، ولمزيدٍ من رفض الواقع الذليل والواقعية الانهزامية وفضح عازفي نغمتها المجرمة.» وقد بدا لي من بعدُ، بلا دليل، وبإكبار، أنّ صاحب الآداب هو مَن يقف خلف ما كنتُ ألتهمه من ردودها على الهزيمة، لا فرق بين «بيان» أدونيس عن ٥ حزيران وردِّ عزيز السيد جاسم عليه، ولا فرق بين مقالات هذا الأخير والإعلان عن ترجمة ناهض منير الريّس لـ «إنجيل الفدائيين والثوريين في العالم،» وذلك في كتابَيْ غيفارا «زعيم الثورة العالمية»: **حرب العصابات**، و**الثورة بين السياسة والاقتصاد**.

ومتابعةً لـ «الرسالة،» سيكتب سهيل إدريس في افتتاحية الآداب (كانون الأول ١٩٦٨) تحت عنوان «الرفيقان،» أنّ الفدائي والأديب رفيقان حقيقيان: «رفيقا السلاح الأمثلان اللذان يَحْملان رسالةً متكاملة، رسالةَ التحرير الكبرى. والقلمُ العربيُّ لا يملك إلا أن يكون قلمًا فدائيّاً، رفيقَ البندقية الفدائية.» كما سيلي في هذه الافتتاحية أنه لا بدَّ للأدب، إذا كان مؤمنًا حقّاً «برسالته الشاقة النبيلة،» أن يعي أنّ آمال هؤلاء الفدائيين ستذبل وتتلاشى إذا لم يضطلع الأدباءُ برسالتهم المقدّسة: «أن يجعلوا ذكرى هؤلاء الذين ضحّوا بوجودهم حيّةً نابضةً في ضمائر الجماهير، لتبقى روحُ المقاومة ملتهبةً بزيت الاستشهاد.» إنها، إذن، رسالةُ التغيير والتحرير المقدّسة، الشاقّة، النبيلة. وهي أيضًا «رسالةُ الأديب في مكافحة الصهيونية،» كما عَنْوَنَ خيري حماد مقالتَه في العدد الممتاز من الآداب (نيسان ١٩٦٨) والذي أوقفتْه على «أدب المقاومة.»

لا أعلم مَنْ كان يكتب إعلانات الآداب عن إصدارات دار الآداب منذ أربعين سنة: أهو سهيل إدريس أمْ عايدة مطرجي إدريس أمْ سواهما؟ لكنني كنتُ أحسب تلك الإعلانات صادرةً عن سهيل إدريس وحده. ومهما يكن، فلعلّ في هذا الذي أنقله من عدد «أدب المقاومة» ما يخاطب يومَنا. ويتعلّق الأمرُ بالإعلان عن صدور ترجمة ريمون نشاطي لكتاب رولان غوشيه، **الإرهابيون والفدائيون**، حيث نقرأ:

«في شهر آذار (مارس) عام ١٨٨١ هاجم بعضُ الشبّان الذين يحملون قنابلَ يدويةً القيصرَ ألكسندر الثاني، فقُتل القيصر، ولكنّ الطغيان ظلّ حيّاً. ومع ذلك، فإنّ الإرهاب دخل حلبة التاريخ على أثر هذا الحادث. وما لبثتْ فئاتٌ كثيرةٌ أن تبنّت هذا الأسلوب: الاشتراكيون ـ الثوريون، الفوضويون، البولشفيك، الجيش الجمهوري الإيرلندي، الإرهابيون الألمان والحرس الحديدي، عصابتا الأرغون وشتيرن في فلسطين، منظمة الجيش السرّي الفرنسي، إلخ.. كما أنّ جبهة التحرير الجزائرية قامت بأعمال فدائية باهرة ضدّ الجيش الفرنسي المحتلّ، وكان أحد أبرز قادتها يوسف سعدي. ويقوم الآن الفدائيون العرب الأبطال في فلسطين بأروع المآثر. ولا تزال أعمالُ الإرهاب والفدائية منتشرةً في كثير من أقطار العالم. والواقع أنّ هذا الشكل من المقاومة يحلّ تدريجيّاً محلَّ الحرب التي يَصْعب فيها تجنيدُ كتلٍ بشريةٍ كبيرة وتوشك أن تؤدّي إلى نزاعٍ عالمي ذي نتائج خطيرة.»

مثلُ هذا الذي يخاطِبُ به الإعلانُ يومَنا **هذا**، يأتي أيضًا في افتتاحية عدد «أدب المقاومة» والتي جاءت تحت عنوان «أدبُ ما بعد النكسة» تعقيبًا على المؤتمر السادس للأدباء العرب الذي كان قد انعقد في آذار (مارس) ١٩٦٨. وقد علّق سهيل إدريس فائدةَ المؤتمر على تحديد دور الأدباء العرب ومسؤوليتهم في هزيمة ٥ حزيران، وهي التي لا تقلّ عن مسؤولية القادة العسكريين والسياسيين. ولكي يَعضد إدريس ما يذهب إليه، فإنه يصف الواقعَ الأدبي عامَ ١٩٦٨، ويلحّ على نقد الذات. لكأنه، مرةً أخرى، يخاطب يومَنا في قوله: «يجب أن نعترف بأننا نادرًا ما وقفنا في وجه الإرهاب الذي كانت تمارسه السلطاتُ على فكرنا حين تهدِّدنا باعتقال حرياتنا وألسنتنا، وتَمْنع أشخاصَنا من عبور أراضيها، وتَمْنع صحفَنا وكتبَنا لمجرّد أننا كنا ننتقد أحيانًا أنظمتَها أو تصرّفاتِها. وكنّا نؤْثر أن نهادنَ ونُرائيَ وننافقَ حتى يرى إنتاجُنا الطريقَ مفتوحًا أمامه.» وقد يكون مفيدًا هنا أن نُذكر مسرحيةُ سهيل إدريس، **زهرة من دم**، التي تذكّر كثيرًا بذلك الفصل المنشور من رواية **زمن الهزيمة والنصر**. فقد رمّزت المسرحيةُ، وبسذاجة، إلى فلسطين بالزهرة، وتمثّلتْ فيها شخصياتُ الفدائيين والإسرائيليين والجاسوس أحمد، وانوسمتْ جميعُها بالتسطيح، **إذ يبدو أنّ همّ الكاتب كان في مكانٍ آخر لا صلةَ له بالفنّ المسرحي، أو هو على صلةٍ واهيةٍ به. وما كان ذلك الهمّ سوى المقاومة والفداء**، وسوى الحلم الذي يمثّله ما استمع إليه هشام على الراديو، وفحواه أنّ المقاومة اتّحدتْ في تنظيمٍ هائل، وهي تغلي غليانًا، ولهشام إذنْ أن يجلجل: «قد يخرِّبون بيتَنا ولكنّنا سنبنيه، ثم يخرّبونه ثم نبنيه، ولا بدّ أن ننتصر.»

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
الكاتب، الناشط، المؤسسة

بالتوازي مع مثل هذا الخطاب (الآداب، شباط ١٩٧٠)، تُجلجل في المجلة دعوةُ محمد النويهي إلى «الثورة الفكرية،» ودعوةُ يسري الجندي إلى «الثورة الأبدية،» وكأنّهما تمهّدان لدعوة سهيل إدريس إلى الثورة الثقافية العربية، وهي الدعوة التي تجلوها افتتاحيتُه للعدد الممتاز «نحو ثورة ثقافية عربية» (أيار ١٩٧٠). وقد رَسم إدريس ملامحَ الثورة الثقافية بأنها جديدة، تتّصل بما سبقها مما نجح ومما أخفق، وبأنها ضدّ أية نزعةٍ «تنادي بهدم كلّ ما في الماضي، وهي النزعة المتفشّية بعد الهزيمة بحجة أنّ الماضي هو سببُ الهزيمة،» في حين أنّ الإخفاق في رأي إدريس «مكتوبٌ» لكلّ ثورة تريد أن تبدأ من جديد، أيْ «من نقطة الصفر، هادمةً مشاركةَ جميع الأجيال السابقة.» **ويشخّص إدريس في نزعة الرفض التي تميِّز هذا المذهبَ «الجديدَ» ردّةَ فعلٍ على الهزيمة، لا فعلاً للتحرر منها.** ويرى أنّ القائلين بها يلتمسون الفعلَ من خارج المجتمع، ويريدون فرضَ فعلٍ مستمَدٍّ من تجارب أجنبية، وهم يتعالَوْن على الشعب ويزدرونه. ويؤكّد الكاتبُ باسم الجماعة (أية جماعة؟) أننا لا نُنزل الماضي وتراثَه منزلةَ التقديس: «إنّ في هذا التراث الذي نعتزّ به جوانبَ كثيرةً قد بليَت وأصبح من الضروري تجاوزُها؛ فكما أننا لا نَرْفض أن نفيدَ من تراث الأمم ومن مذاهبها المتطورة، ولا سيما المذهب الاشتراكي، فإننا لا نرفض أن ننقدَ ما لم يعد في تراثنا وماضينا يتلاءم وروحَ التجديد والتحرر والانطلاق لبناء مجتمعنا الجديد.» وفي هذا السياق يحدِّد سهيل إدريس مرتكزاتِ الثورة الثقافية على النحو التالي:

- تبنّي الوحدة العربية بوصفها المظهرَ الحقيقي لكلّ الثورات التقدمية العربية.

- ضرورةُ تجديد المفاهيم على الصعيد الديني والفلسفي، والانطلاق من رحابة العقيدة الدينية وسعةِ بابِ الاجتهاد.

- الإنتاجُ الحديث منذ عصر النهضة حقّق معجزاتٍ هامةً «مما يقتضي توثيقَها ونقدَها والتبصُّرَ في كثير من النزعات الفنية التي يزعم أصحابُها أنهم يريدون بها التجديدَ بينما هي مجلوبةٌ من غير أراضينا، غيرُ منسجمةٍ مع مقتضيات ثورتنا المنشودة.»

- اعتمادُ ميزانِ النقد والموضوعية، لا ميزانِ الرفض والسلب والنزق العصبي.

ولا يغيبنّ أنّ ما يتّصل من هذا الخطاب بالتراث وبعصر النهضة وثيقُ الصلة بما كان قد بدأ آخرون إعدادَه من مشروعاتهم المتعلّقة بالتراث أو عصر النهضة، وهي مشروعاتٌ سيتوالى ظهورُها في مطلع السبعينيات من القرن الماضي على يد طيّب تيزيني وأدونيس وهادي العلوي وحسن حنفي ومحمد عابد الجابري وحسين مروّة.

ومما يضيء مواقفَ سهيل إدريس وكتابتَه السياسية، من هذه الزاوية، ما كان من السجال في معارك ثقافية وفكرية وسياسية. وربما كانت معركةُ كتاب صادق جلال العظم، **نقد الفكر الديني**، مثالاً لذلك كلّه. ففي مطلع عام ١٩٧٠ كتب سهيل إدريس مميِّزًا بين مبدإ دعم حرية الفكر وبين ملابسات معركة كتاب العظم، ويقول: «نحن مع مبدإ حرية الفكر إلى أبعد الحدود؛ فحرية الفكر هي ضمانُ كرامتنا ومجالُ نشاطنا الوحيد.» ويشخِّص إدريس في مصادرة الكتب ومحاولة توقيف مؤلّفيها أحيانًا دليلاً «على أنّ هذه الديمقراطية التي يتبجّح بها لبنانُ هي ديمقراطيةٌ زائفةٌ ودعوى باطلة.» لكنّ لإدريس تحفّظاتِه بصدد معركة كتاب العظم، ابتداءً من أنّ جريدة **النهار** تبنّت الكتابَ، وهي التي «لم يسبقْ لها أن تبنّتْ كتبًا أخرى صَدَرَ قرارٌ بمصادرتها وبطرد مؤلِّفيها من لبنان، مما يدلّ على أنّ المسألة عندها ليست مبدأً، وإنما هي مسألةُ شخصٍ بعينه.» والتحفّظ الثاني هو أنّ العظم معادٍ لثورة ٢٣ يوليو، على ما يتبيّن لإدريس من مقالةٍ للعظم في مجلة **مواقف**؛ وهذا العداء هو ما يفسِّر لإدريس سرَّ تضامن **النهار** معه. ويتأسّف إدريس لاستجابة العظم لـ **النهار** في استغلاله بإبرازه كمفكّر ماركسي ملحد، ليس لتمجيد فكره، بل لإثارة معركة ضدّ الماركسية والشيوعيين، وتحريضِ المتديّنين على معركةٍ جانبية.

❖ ❖ ❖

في عدد تشرين الأول ١٩٧٠ من الآداب يكتب سهيل إدريس عن «غياب القائد» إثر وفاة جمال عبد الناصر. وكأنّي بالكاتب يترنّح طعنةً إثر طعنة: منذ الانفصال الذي قوّض الوحدةَ السورية - المصرية عام ١٩٦١، إلى هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، إلى معارك أيلول ١٩٧٠ في عمّان، إلى وفاة عبد الناصر. ولكنه، على الرغم من ذلك، يكتب مؤكِّدًا أنّ الأمة العربية ستجني، «من غير شكّ، ثمرةَ الأعمال التي هيّأ لها عبدُ الناصر قبل أن يغيب، سواء رُزقتْ قائدًا في مثل قيمة هذا القائد أو لم تُرزق.» كما يكتب إدريس أنّ موت عبد الناصر قد يكون دعوةً أخيرةً إلى اتّحاد العرب، ولعلّه «إنذارٌ أخيرٌ بأنّ الأمة العربية آيلةٌ إلى الانحلال والزوال إذا لم تعملْ على تحقيق وحدتها بأسرع وقتٍ ممكن.»

على إيقاع الطعن الذي تواصَلَ أعنفَ وأسرَعَ، من دون أن يكون لبصيص حرب ١٩٧٣ أثرٌ يذكر، أخذت الكتابةُ السياسيةُ لسهيل إدريس تنوس، في مقابل تنامي انشغالاته الأخرى - ومنها ما يتصل بالشأن العامّ وبالسياسة. لكنّ صفحةً يبدو أنها قد أَخذتْ تُطوى، حتى قُيِّض لما بناه المؤسِّسُ أن يتجدّد على يد سماح إدريس، وهذا يقتضي قولاً آخر.

أما الختام فهو في ما يتبقّى خارج الأدب من كتابة سهيل إدريس وسيرتِه. فإذا كان كثيرٌ من ذلك هو من اللغة السياسية الدائلة، فحسبُ القليل الباقي أن يكون من الموقف النقدي والفكر النقدي، وأن يَتَغَنْوَنَ بحرية التعبير والسجالِ والمنافسةِ والانفتاحِ والديمقراطية.

اللاذقية